الشعر
في عصر عبد العزيز بن مروان [1]
(65 – 86هـ)

شهدت مصر في العصر الأموي كثيرًا من الحركات السياسية والدينية التي اضطرم بها المجتمع الإسلامي آنذاك، ومما يدلنا على ذلك امتداد حركة ابن الزبير إليها؛ إذ نجح الزبيريون في فرض سلطانهم عليها بعض الوقت، حتى استطاع مروان بن الحكم – الخليفة الأموي – أن يدخلها ويقضي على الحكم الزبيري فيها، ويستخصلها لنفسه، ويولي عليها ابنه عبد العزيز سنة 65هـ، وقد ظل عبد العزيز واليًا على مصر حوالي إحدى وعشرين سنة، وكانت هذه الفترة أكثر ازدهارًا من الناحية الفكرية والأدبية من الفترة السابقة، وفيها انتعش الأدب عامة والشعر خاصة، وصارت مصر تموج بالشعراء الذين أموها وقصدوا واليها، وكان لهم تأثيرهم البالغ في الحياة الأدبية آنذاك.

ويرجع ازدهار الشعر في عصر عبد العزيز إلى أسباب كثيرة، أهمها: استقرار الحالة السياسية، فلم نسمع عن فتن أو اضطرابات كثيرة في ذلك العهد، وطبعي أن يؤدي هذا الاستقرار إلى استقرار المجتمع، واستقرار نفسية الشعراء، وأن يأمنوا على أنفسهم إذا قصدوا ذلك الوالي، وأن تغريهم تلك الحالة المستقرة إلى الوفود إليه. وقد نتج ذلك الاستقرار عن طول الفترة التي قضاها عبد العزيز في الحكم، واهتمامه بشئون إمارته.

وقد ترتب على ذلك الاستقرار السياسي استقرار الحالة الاجتماعية، وتقدم الحضارة وازدهارها، فلقد اهتم عبد العزيز – على سبيل المثال – بمدينة حلوان التي اتخذها عاصمة له، وبنى بها الدور والقصور والمساجد، وأخذ الشعراء يصفون تلك المظاهر الحضارية الجديدة، ويصورونها في شعرهم.

(1) انظر: هذا الموضوع بالتفصيل: في أدب مصر الإسلامية، د. غريب محمد علي، ط دار البيان، سنة 1988م.

ومما يضاف إلى بواعث الازدهار الأدبي كرم عبد العزيز وجوده؛ فلقد كان كريمًا جوادًا سخيًّا، ومما يدلنا على ذلك أنه كان له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل"[1]، وكان أكثر سخاء وجودًا مع الشعراء، ومن ذلك ما يرويه المقريزي من أن الشاعر نصيبًا دخل عليه في مرضه منشدًا:

ونـــزورُ ســـيَّدنا وســـيِّدَ غيرِنَـــا لَيْـــتَ التَّـــشَكِّي كـــانَ بـــالعُوَّادِ

لـــو كـــانَ يقبـــلُ فِدْيَـــةً لفديتُـــهُ بالمُـــصْطَفي مـــن طـــارِفِي وتِـــلادِي

فلما سمع صوته فتح عينيه وأمر له بألف دينار [2].

ومن تلك الأسباب أيضًا أن عبد العزيز نفسه كان يحب الشعر، ويشجع على نظمه بكل سبيل، وقد أدى ذلك إلى أن يتحول قصره إلى بلاط شعي ينافس البلاط الأموي في الشام.

ومما يدلنا على حبه الشعر وحثه على إنشاده، أن النصيب دخل عليه مرة، فطلب منه عبد العزيز أن ينشد قوله:

إذَا لَمْ يكُـــنْ بـــينَ الخليلـــينِ ردَّةٌ سوى ذِكْرِ شيءٍ قَدْ مَضَى دَرَسَ الذِّكرُ

فقال النصيب: هذا ليس لي، وإنما هو لأبي صخر الهذلي، ولكنني الذي أقول:

وقفـــتُ بـــذي ودّانَ أنـــشدُ نـــاقَتِي ومـــا إِنْ بِهَـــا لي مـــن قَلـــوصٍ ولا بكـــرِ

فقال عبد العزيز للنصيب: لك جائزة على صدق حديثك، وجائزة على شعرك، فأعطاه ألف دينار على صدق حديثه، وألف دينار على شعره [3].

---

(1) الولاة والقضاة، ص 51.

(2) الخطط، ج 1، ص 391، وانظر: الشعر والشعراء، ج 1، ص 516.

وانظر: حسن المحاضرة، السيوطي، ج 1، ص 587، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط عيسى البابي الحلبي، سنة 1967، وزهر الآداب، ج 2، ص 279.

(3) انظر: الأغاني، ج 1، ص 132 وما بعدها، ط عز الدين، بيروت.

ولم يكن عبد العزيز يحب الشعر فحسب؛ بل كان يتذوقه ويحسن نقده، ويفاضل بين الشعراء [1].

وعلاوة على ذلك، فقد كان ولي العهد بعد عبد الملك، وقد أدى هذا الأمر إلى أن تتعلق آمال الشعراء به، وأن يخطبوا وده.

وهذه الأسباب كلها وغيرها أدت – بطبيعة الحال – إلى انتعاش الحركة الفكرية عامة، وازدهار الحركة الشعرية خاصة.

مظاهر انتعاش الحركة الشعرية في عصر عبد العزيز:

لعل أهم مظاهر انتعاش تلك الحركة، يتلخص في الكثرة والتفوق والتنوع، ونعني بالكثرة كثرة الشعراء، وخاصة الذين اتصلوا بعبد العزيز، وفيهم من هو مشهور معروف، مثل جميل بثينة، وكثير عزة، وعبيد الله بن قيس الرقيات، والنصيب، وأيمن بن خريم، والأحوص، وهؤلاء كلهم وافدون، ومنهم من كان مغمورًا مقيمًا في مصر، مثل أمية ابن أبي عائذ، وذي الشامة بن عمرو، والمثلم البلوي، وزهير بن قيس البلوي، وغيرهم.

والكثرة أيضًا تعني كثرة الشعر؛ فلقد كثر الشعر في ظل عبد العزيز كثرة لافتة للنظر، والكثرة نعني بها طول النص، ففي الفترة السابقة لم نكد نعثر إلا على قصيدة او اثنتين، أما في هذه الفترة فلقد كثرت القصائد وطالت.

أما التفوق فنقصد به الجودة؛ فلقد جوّد الشعراء في صنعتهم الشعرية، واهتموا بالصياغة، وأحكموا التركيب.

ونعني بالتنوع تنوع الأغراض الشعرية وتعددها، وهنا نود أن نقف عند أبرز هذه الأغراض.

(1) انظر: شيئا من مفاضلاته بين الشعراء في الأغاني، ج 1، ص 127 وما بعدها.

أ- المدح:

كان المدح في عصر عبد العزيز أكثر الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشعراء، وكانوا - في الحقيقة - يبغون من وراء ذلك الرفد والعطاء، وكان الخليفة نفسه معطاء، وبمعنى آخر، أن المدح لم يكن آنذاك حسبة لوجه الله، إنما تحول به الشعراء إلى التكسب والارتزاق، ومما يدلنا على ذلك قول النصيب:

وإنَّ وراءَ ظهـــرِي يـــا ابـــنَ لـــيلى أناسًـــا ينظـــرونَ متـــى أَؤُوبُ

أمامـــةُ مـــنهمُ ولمـــأٌ قَييهَـــا غـــداةَ البـــينِ في أثـــرِي غُـــروبُ

فـــأَتبعْ بعـــضنَا بعـــضًا فلـــسنا نُثِيبُـــكَ لكـــنِ اللهُ المُثِيـــبُ [1]

فالشاعر هنا ينتظر الأعطية، ويرغب في الهبات، ويحاول من خلال ذلك أن يثير عطف الخليفة عليه؛ إذ يشير إلى أن هناك أناسًا ينتظرون عودته، ورغم إعلانه في النهاية أن المثوبة من الله، فإنه يحاول أن يقدم لعبد العزيز مثوبة من نوع آخر، وهي تسجيل محامده وتخليدها في شعره؛ حيث يقول في قصيدة أخرى:

فمِنْـــكَ العطـــاءُ ومِنِّـــي الثَّنَـــاءُ بكُـــلِّ مُحَـــبِّرةٍ ســـائره [2]

والحق أن لعبد العزيز نعمًا سابغة وفضلًا غامرًا على الشعراء خاصة، وعلى كل من وفد إليه عامة، وهذا ما يشير إليه قول النصيب:

لعبـــدِ العزيـــزِ عـــلَى قَوْمِـــهِ وغـــيرهمُ نِعَـــمٌ غـــامِرَهْ

فبابُـــك أَلْـــيَنُ أبْـــوابِهِمْ وَدَارُكَ مأهُولـــةٌ عَـــامِرَهْ

وكفَّـــك حـــينَ تَـــرَى الـــسائِلِي ـــن أنْـــدَى مـــن اللَّيلـــةِ المَـــاطِرَهْ [3]

(1) الأغاني، ج 1، ص 131.

(2) الأغاني، ج 1، ص 129، وانظر: الشعر والشعراء، ج 1، ص 412.

(3) الأغاني، ج 1، ص 129.

ويشير إليه أيضًا قول كثير:

فبُـــورِكَ مَـــا أعْطَـــى ابـــنُ لـــيلى بنِيَّـــةٍ وصامتُ ما أعْطَى ابنُ ليلَى ونَاطِقُهْ[1]

لقد مدح الشعراء جود عبد العزيز وكرمه، ووقفوا عند هذا الأمر كثيرًا، إلى درجة أنهم وصفوا عطاءه بفيض النيل؛ بل هو النيل الفياض خيرًا وبركة على مصر، وهذا ما يظهر في قول النصيب:

فبَـــشِّرْ أهـــلَ مِـــصْرَ فقَـــدْ أتَـــاهُمْ مـعَ النِّيـــلِ الـــذي في مِـصْرَ نَيـلُ [2]

وكما امتدحوا ذلك الأمر كثيرًا، فقد امتدحوا كلام عبد العزيز الذي يدل على عقلية راجحـــة وفكـــر ثاقـــب وبعـــد نظـــر، وهـــذا مـــا يـــذكره النصيب في قوله:

يقـــولُ فيُحـــسنُ القـــول ابـــنُ لـــيلَى وَيَفْعَـــلُ فـــوقَ أحـــسنِ مَـــا يقـــولُ[3]

ومن الأمور التي وقف عندها الشعراء يمتدحونها شجاعة عبد العزيز، وقرنوا ذلك بكرمه، فهو بالإضافة إلى أنه جواد سخي، فهو بطل صنديد، وفارس مغوار، وحسام مصلت، وموت زؤام، والحق أن بعضًا من هذه المعاني يظهر في قول الأحوص:

أغـــــرُّ لمَـــــرْوَانَ ولَـــــيْلَى كأنَّـــــهُ حُـسَامٌ جَلَـتْ عنـهُ الـصَّياقِلُ قَـاطِعُ

وإنَّـــا عَـــدَانَا عـــنْ بـــلادٍ نُحِبُّهَـــا إمـــامٌ دَعَانَـــا نَفْعُـــه المُتَتَـــابعُ [4]

وامتدحوا إلى جانب ذلك محتده الكريم، وأصله الشريف، وأرومته الأصيلة، فهو خير فرع لأكرم منبت، كما يقول جميل بثينة:

---

(1) ديوان كثير، ص 309، جمع وشرح د. إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت، 1971.

(2) الأغاني، ج 1، ص 135.

(3) الأغاني، ج 1، ص 135.

(4) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ج 2، ص 662، ط المدني، سنة 1974م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

أَبَــا مَــرْوانَ أَنْــتَ فَتَــى قُــريشٍ وَكَهْلُهُـــمُ إذَا عُـــدَّ الكُهُـــولُ
نَــمَا بِــكَ فِي الذَّؤابــة مِــنْ قــريشٍ بُنَـــاةُ المجـــدِ والعَـــزُّ الأَثِيـــلُ
أَرُومٌ ثَابِــــتٌ يهتَـــــزُّ فيـــــهِ بـــأَكرَمِ مَنْبِــتٍ فــرْعُ أَصِــيلُ (1)

وبالجملة فقد امتدح الشعراء صفات عبد العزيز كلها، وأشادوا بكل فضائله وخلائقه، وهو – دوما – السابق إذا ما تبارى الناس في ميدان الأخلاق، وتسابقوا إلى حلبة المكرمات، كما يقول كثير:

إِذَا ابتــدرَ النَّــاسُ المكــارمَ بــذَّهُم عراضـةُ أخـلاقِ ابـنِ لـيلى وطُولُهـا(2)

ب- الوصف:

كان المنتظر أن يقف الشعراء عند المتغيرات الحضارية الجديدة، يصفونها ويتحدثون عنها، لكن ذلك لم يحدث كثيرًا، ولعلهم قد شغلوا بالممدوح أكثر من انشغالهم بالمكان؛ لأن العطاء كان همهم الأكبر، ومع ذلك لا نعدم وجود مقطوعات في الوصف، ولعل من أهم ما وصفه الشعراء – في هذه الفترة – وصف مصر، التي تختلف طبيعتها عن الأمصار الإسلامية الأخرى، وأهم ما قفوا عنده في مصر مدينة حلوان، التي بناها عبد العزيز، وأحكم غرسها، واتخذها حاضرة له، وبنى فيها الدور والقصور والمساجد، وأحسن عمارتها، وعن هذه المدينة يحدثنا ابن قيس الرقيات قائلًا:

سَــقْيًا لِحُلْــوانَ ذِي الكُــرومِ ومَــا صَــنَّفَ مِــنْ تِينِــهِ ومِــنْ عِنَبِــهْ
نَخْــلٌ مــواقِيرُ بالفَنَــاءِ مِــنَ الــ بَــرْنيّ يهتــزُّ ثَــمَّ فِي سُرَبِــهْ (3)

(1) المصدر السابق، ج 2، ص 674،
انظر: ديوان جميل، تحقيق د. حسين نصار، ص 168، ط دار مصر للطباعة 1979.
(2) ديوان كثير، ص 34.
(3) ديوان ابن قيس الرقيات، ص 13، محمد يوسف نجم، ط بيروت 1958.

ومن الأمور التي وقف عندها الشعراء يصفونها: المعارك التي دارت بين عبد العزيز وبعض خصومه، وذلك مثل المعركة التي دارت بينه وبين ابن جحدم والي ابن الزبير، وفي وصف هذه المعركة يقول عبد الرحمن بن الحكم:

أَلا هــــلْ أتَاهَــــا عـــــلى نَأْيِهَــــا نِبَـــــاءُ الـــــتراويحِ والخنْــــدقِ
وجَاشَــتُ لنــا الأرضُ مــن نحــوِهمْ بحَيَّـــيْ تُجيـــبَ ومِـــــنْ غَـــــافقِ
فلـــو كنـــتِ رملـــةُ شـــاهدتِه تمنَّيـــتِ أنْـــكِ لَمْ تُخْلقِـــــي (1)

وكما وصفوا بعض الأماكن وما استجد بها وبعض المعارك وما دار فيها، فقد وصفوا - إلى جانب ذلك - بعض رحلات عبد العزيز والسفن التي كان يستخدمها في تلك الرحلات، ومن ذلك وصف عبيد الله بن قيس الرقيات رحلة لعبد العزيز إلى الإسكندرية، كانت سنة إحدى وثمانين، يقول ابن قيس الرقيات:

غَـــدَوْا مِـــنْ دَوْرَجِ الكِرْيَـــو نِ حيـــثُ ســـفينُهُمْ حُـــزُقُ
فلـــمَا أنْ علَـــوْنَ النِّيــــ ــلَ والرَّايـــاتُ تَخْتَفِـــقُ
رَأيْـــتُ الجـــوهرَ الحَكَمــــ والـــدِّيباجُ يتَـــأْتلِقُ
ســـفائنُ غـــيرُ مُقْرِفَـــةٍ إلى حُلـــوَان تَـــسْتَبِقُ (2)

ج- الفخر:

لا يقابلنا من الفخر في شعر هذه الفترة إلا مقطوعة واحدة للمثلم البلوي، يفخر فيها بقيس بن أوس البلوي، الذي سابقه عبد العزيز، فجاء قيس سابقًا، وهي مقطوعة تذكرنا ببعض الأحداث الجاهلية، مثل سباق داحس والغبراء لكنها تدل على سعة صدر الوالي

(1) الولاة والقضاة، ص 44.

(2) الولاة والقضاة، ص 53، وانظر: الديوان، ص 158، وفيه (غير مقلعة).

obeikandl.com

وأفقه، وتدل على الحرية التي كفلها لشعبه، فلم يعاقب قيسًا، ولم يضق ذرعًا بالمثلم، يقول المثلم:

تـــداركَنَا قـــيسُ بـــنُ أوسٍ بـــسَبْقِه وســـارَ مِـــنَ البَلْقَـــاءِ غـــيرَ مُكَـــذَّبِ

يَـــسومُ ويـــستدرِي الغـــلامَ عنانُـــه إذَا مَـا جـرتْ مِـنْ غـائطٍ متـصوِّب[1]

د- الهجاء:

وكما لم يقابلنا من الفخر إلا مقطوعة واحدة، فكذلك لا يقابلنا من الهجاء إلا قصيدة لأيمن بن خريم، قالها يعرض فيها بعبد العزيز بعد أن حدثت بينهما جفوة، استأذن أيمن على إثرها عبد العزيز، فخرج إلى الشام قائلًا:

رَكِبْـــتُ مـــن المُقطَّـــمِ فِي جُمَـــادَى إلى بِـــشْرِ بـــن مـــروانَ البريـــدَا

ولَـــوْ أعطَـــاكَ بِـــشرٌ ألـــفَ ألـــفٍ يَـــرَى حقًّـــا عليـــهِ أنْ يَزِيـــدَا

أمـــيرَ المـــؤمنينَ أقِـــمْ ببِـــشرٍ عَمـــودَ الـــدِّينِ إنَّ لَـــه عمـــودَا

ودَعْ بِـــشرًا يُقـــوِّمهمْ ويُحْـــدِث لأهـــلِ الزَّيـــغِ إســـلامًا جديـــدَا [2]

ويبدو أن الشاعر قد ظلم عبد العزيز؛ إذ لم نجد من الهجاء سوى هذه القصيدة، التي تدل على أن أيمن بن خزيم لم يحفظ الود؛ بل أنكر المعروف والخير اللذين أسديا إليه من عبد العزيز.

هـ - الرثاء:

الرثاء هو فن تأبين الموتى، ولقد تفنن الشعراء في تأبين عبد العزيز وابنه الأصبغ، وأكثروا من ذلك إكثارًا، فذرفوا العبرات، وسكبوا الدموع غزيرات، وبكوا أيامًا ماضية وعزًّا عاشوه في أكناف عبد العزيز، ومضوا يخلدون ذكراه في شعرهم، ويتحدثون عن

(1) المؤتلف والمختلف، الآمدي، ص 181، ط دار الكتب العلمية، بيروت ط ثانية.

(2) الأغاني، ج 21، ص 8.

خصاله وأعماله، ويرون أن مصر بعد عبد العزيز لن تورق بالخير، ولن تونق، كما يقول ذو الشامة:

فَمَا مِصْرُ لِي بعدَ عبدِ العزيـ ... ـزِ والأصْبَغِ الخيرِ بالمُونِقَهْ
فإِنْ تكُ مصرُ أشارتْ بها ... إلى الشَّرِّ يومًا يدٌ مُوبِقَهْ
فقِدْمًا تَقَرُّ بِمصْرَ العيُو ... نُ في لَذَّةِ العيشِ مُحْدَودقَهْ[1]

لقد تجرع الشعراء الألم غصصًا، وخيم الحزن على أقطار قلوبهم وأرجاء نفوسهم؛ فنفوسهم قد تحطمت على صخرة الموت، وساءت أحوالهم، فمضوا يصفون لوعتهم وحسرتهم، ويبكون بكاءً مرًّا أليمًا؛ فهم أحق الناس بالبكاء، وذهبوا يتحدثون عن ماضي عبد العزيز وأمجاده، وذهبوا يعددون مفاخره ومآثره، يقول سليمان بن أبان الأنصاري:

فَمَنْ ذا الذي يَبْنِي المكارمَ والعُلا ... ومَنْ ذَا الذي يهدِي لَهُ بعدَك السَّفْرُ
فكُنتَ حليفَ العُرفِ والخيرِ والنَّدى ... فمِتْنَ جميعًا حينَ غَيَّبَك القبرُ
فبعْدَكَ لا يُرجَى وليدٌ لنَفْعَةٍ ... وبعْدَكَ لا يُرجَى عَوانٌ ولا بِكْرُ[2]

إنه الرزء الجلل والداهية الدهياء، التي لم ير ولم يسمع بمثلها، والتي فجع بها الشعراء ونكبوا، ولا حيلة لهم أمامها إلا البكاء أو الصبر، كما يقول النصيب:

فإِنْ أبْكِه أُعْذَرْ وإنْ أغْلِب الأَسَى ... بِصَبْرٍ فمِثْلي عِنْدَما اشتدَّ يَصْبِرُ[3]

لقد ندب الشعراء حظهم العاثر وماضيهم الغابر، فامتلأ شعرهم زفرات وحسرات، وأخذوا يتمنون عودة الأيام التي نعموا فيها بالاتصال بعبد العزيز، ولكن هيهات، فليس

(1) الولاة والقضاة، ص 56.
(2) الولاة والقضاة، ص 56، 57.
(3) الأغاني، ج 1، ص 140.

أمامهم إلا التسليم المطلق بقضاء الله، ومن ثم فقد كتب على باب قصر عبد العزيز قول الشاعر:

أيـــنَ ربُّ القَــصْرِ الــذي شـيَّدَ القَــصْـ ـرَ؟ وأيـــــنَ العبيـــــدُ والأَجْنَـــــادُ؟
أيـنَ تلـكَ الجُمـوعُ والأمـرُ والنَّهْـ ـــيُ وأعــوانُهمْ وأيــنَ الــسوادُ؟(1)

هذا القول الذي يدل على المرارة المريرة والحزن الدفين، على ما أصاب القصر من خراب وتدمير، وعلى ضياع الملك وتبديد الشمل.

إنها مصيبة - رغم هذا التسليم المطلق لله - لن ينساها الشعراء أبدًا على مر الدهور وكر السنين، وهذا ما يشير إليه قول النصيب:

تَـــاللَّه أنْـــسَى مُـــصيبَتِي أبـــدًا مَـــا أسْــمَعَتْنِي حَنِينَهَـــا الإبِـــلُ
ولا التَّبكِّــــي عليــــهِ أُعْوِلُــــه كُــلُّ المُـصِيباتِ بَعْــدَهُ جَلَــلُ(2)

***

(1) حسن المحاضرة، ج 1، ص 587.

(2) الأغاني، ج1، ص 139.